الحملات في أواخر الخلافة العباسية

د. عبد الحليم عويس

سبببسس

المملكة العربية السعودية
مكة المكرمة
رابطـــة العالم الإسلامي

مؤتمـــر مكـــة المكـــرمـــة (السابع)
نصرة نبي الأمة صلى الله عليه وسلم
(المحور الأول)

الحملات في أواخر الخلافة العباسية

بقلـم

أ.د عبد الحليم عويس

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

مصر

(٥-١٤٢٧/١٢/٧هـ - ٢٦-٢٠٠٦/١٢/٢٨م)

توطئة:

لم تكن الدولة العباسية (١٣٢ – ٦٥٦هـ) دولة فتوحات كالدولة الأموية (٤١ – ١٣٢هـ).

ومع أن العصر العباسي الأول (١٣٢ – ٢٣٤هـ) ضم عدداً من الخلفاء ذوي الهيبة؛ الذين ورثوا خلافة عظمى مرهوبة الجانب، إلا أنه بتأثير عدد من العوامل الداخلية والخارجية أصبحت الخلافة العباسية في موقف الدفاع، وظهرت فيها تكتلات مذهبية وسياسية أفقدها كثيراً من مقومات الوحدة العقدية والسياسية.

وكان الأعداء في شمال أسبانيا، وفي الإمبراطورية البيزنطية، والدول الأوربية، والكنيسة البابوية يراقبون كل هذه التطورات، ويخططون لاستثمارها، وهذا هو الذي جعلهم يفكرون في القيام بحرب صليبية شبه عالمية على العالم الإسلامي مغربه ومشرقه.

ومن هنا قرر الغرب الهجوم العام على الشرق فيما عرف باسم الحروب الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م/ ٤٩٣-٦٩٠هـ)، وهي الحروب التي اشتركت فيها الكنيسة والدول النصرانية، وكانت القيادة للبابوية، بينما كان الملوك تابعين لها، يسعون لرضاها وبركتها، بدافع الخوف من أن يصدر ضدهم قرار (بالحرمان)، كما وقع لبعضهم في بعض الظروف.

وقد أعلن البابا (أوربان الثاني) بداية الحروب الصليبية، فإليه وإلى البابوية يرجع وزر هذه المأساة التي راح ضحيتها مئات الألوف من البشر على الجانبين الشرقي والأوروبي.

ولم تهدأ هذه الحروب منذ قامت وإلى أواخر الخلافة العباسية، عندما سقطت هذه الخلافة على يد التتار سنة (٦٥٦هـ)، بتشجيع من الصليبيين.

ومع أن (آل زنكي) و(صلاح الدين الأيوبي) وبعض من عاصروهم من المخلصين قاموا بجهود كبيرة انتهت بمعركة حطين، التي انتصر فيها (صلاح الدين) على الصليبيين سنة (٥٨٣هـ) انتصاراً ساحقاً، إلا أن الحروب الصليبية استمرت بعد ذلك، وفي العقود الخمسة الأخيرة من خلافة بني العباس وقعت الحملة الصليبية الرابعة، التي انحرفت عن أهدافها،

واشتبكت مع البيزنطيين، هذا بالإضافة إلى أربع حملات أخرى اتجهت إلى عكا وتونس ومصر.

وما يهمنا هنا هو الإشارة إلى روح العدوانية الموصولة التي ظلت تؤجج هذه الحروب الصليبية لمدة قرنين من الزمان، دون احتكام إلى العقل، أو محاولة لدخول عالم التكامل والحوار، بدل الصدام والدمار.

وفي الصفحات التالية نقدم رصداً للحملات الصليبية في أواخر الخلافة العباسية بعون الله وتوفيقه.

علاقة سلاطين السلاجقة والأيوبيين بالخلفاء العباسيين

بصفة عامة كانت سياسة سلاطين السلاجقة والأيوبيين قائمة على الاستقلال والتقليل من شأن الخليفة ... و هذا خطأ كبير.

ويذهب كثير من المؤرخين – ونحن معهم – إلى أن السلاطنة السلاجقة والأيوبيين – مع أنهم قدوا خدمات عظمى للحضارة الإسلامية، وأنقذوا الخلافة العباسية من السيطرة الباطنية – لم تكن علاقتهم حسنة بالقدر الكافي مع الخلفاء العباسين، وكان هناك نوع من المنافسة الظاهرة، والخفية بين الخلفاء والسلاطين، فقد كان السلاطين يتجاوزون الخلفاء في كثير من الأمور ولا يأبهون بهم، ويمكن القول بأن (صلاح الدين الأيوبي) من القادة الذين حاولوا – بدرجة كبيرة – أن يكونوا على صلة حسنة بالخلفاء العباسيين، فقد كان (صلاح الدين) يراسل الخليفة العباسي (الناصر لدين الله) (٥٧٥ – ٦٢٢هـ) في بغداد ويخبره بانتصاراته، ويطلب منه الوقوف معه، وتقوية دولته ومنحه (الإنعام على الغايات المزيدة، وهو تقليد جامع لمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله للدولة بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ وولد من بعدنا، تقليداً للنعمة تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعم به من السمات التي يقتضيها الملك)[1].

ومع ذلك، وفيما يبدو لي، ومع تقديري الكبير لشخصية (صلاح الدين) – وهو من هو في فضله – وجهوده مشكورة في هذا المجال وفي غيره، إلا أني مضطر إلى القول بأنه لم ينجح –كما ينبغي – في الاحتفاظ بعلاقة قوية مع الخلفية العباسي، وبدا أحياناً كأنه يطمع في الامتداد على حساب سلطان الخلافة، إضعافاً لها وتقليلاً من شأنها، بينما كن السلوك الآخر هو المطلوب في مواجهة الغارة العالمية على الإسلام بجناحيها الصليبي والتتري.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٩٠/١٣، سلسلة الذخائر، ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ٢٠٠٤م.

ومن المعروف أن (صلاح الدين الأيوبي) عاصر – في فترة الحرب الصليبية الثالثة – الخليفة (الناصر لدين الله)، وكان هذه الخليفة جاداً في استعادة هيبة الخلافة، وكان صارماً، ومتتبعاً لأخبار الدولة والرعية.

ونتيجة عدة مواقف لعل بعضها غير مقصود من (صلاح الدين) كانت العلاقة بينه وبين الخليفة الناصر مشوبة بالشك وسوء الظن، فلما قتل (ابن المقدم) أمير الركب الشامي لحج عام (٥٨٣هـ) في غرفة من قبل أمير الركب العراقي، شق ذلك على (صلاح الدين)، وقال الذهبي إن (صلاح الدين) قال: "اقتلني إن لم أنتصر له"، وتأكدت الوحشة بينه وبين (صلاح الدين)، ولم يقبل اعتذار رسول الخليفة، وقال: "أنا الجواب عما جرى"[1]، وكان لهذا الموقف أثره في إفساد العلاقة بين الطرفين.

ومن جانب آخر حارب (تقي الدين عمر) ابن أخي (صلاح الدين) ووالياه على البلاد الجزرية (سيف الدين بكتمر)، وحاول الاستيلاء على بلاده في عام (٥٨٧هـ)، وقبض والي أربل في العام نفسه على (حسن بن قفجاق)، واستولى على أرضه (تسمى الكرخاني)، وكان ذلك عدواناً على المماليك المجاورة، ومحاولة لتوسيع مملكة (صلاح الدين)، وهي أمور تسيء إلى مشاعر الخليفة، ولهذا توجه الخليفة إلى (صلاح الدين) بالإنكار الشديد، وأمره بإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه، وطلب إلى (صلاح الدين) أن يرسل القاضي الفاضل لتقرير القواعد، وكشف الأسباب.

ولكن (صلاح الدين) تنصل مما نسب إلى ولاته من الأعمال العدوانية، واعتذر عن إرسال القاضي الفاضل باعتلال صحة القاضي، وضعف قوته عن الحركة إلى بغداد.

وتوجه الخليفة إلى مكاتبة الملك (العادل) ليدخل بينه وبين (صلاح الدين) لما عليه (صلاح الدين) من التقصير بحق الخليفة، وقد أثار ذلك (صلاح الدين)، وعزم على إرسال الشهرزوي إلى بغداد لاستجلاء الحال، وسبب دخول (العادل) بين الجانبين.

---

(١) محمد بطانية: الموقف الإسلامي بعد معركة حطين، ص٦٠٤.

وعندما مات (صلاح الدين) أظهر (سيف الدين بكتمر) صاحب خلاط الشماتة، وظهر بشعار السلاطين، وتلَّقب بالملك (الناصر)، وسارت جيوش خلاط والموصل وسنجار لإخراج العادل أخي صلاح الدين من بلادها.

وهي شواهد تشير إلى ما كانت عليه الخلافة والممالك الشرقية والسلطنة الأيوبية، من مخاوف متبادلة، وهي أحوال أوجدها في فترة (صلاح الدين) تعاظم قوة (صلاح الدين)[1].

وسواء كان (تعاظم قوة صلاح الدين) وهو أمر لا يد له فيه، وليس مسئولاً عنه، هو السبب المباشر في ضعف علاقته بالخليفة العباسي (الناصر)، أم كان الأمر متصلاً بالأسلوب الذي تعامل به (صلاح الدين)، فإن الواجب عليه أن يزداد في تقدير الخليفة، والتعاون معه، كلما ازدادت قوته، ولا يترك الفرصة للخصوم، ففي ذلك خير كثير لكليهما، بينما تؤدي صور الشك والتربص والترقب والحذر، إلى إضعاف الطرفين وتبديد طاقتهما فيما لا يفيد الإسلام والمسلمين.

الهجوم الصليبي على الخلافة العباسية في الحقبة الأخيرة

كان نجاح الحملات الصليبية في احتلال الرها وإنطاكية، وبيت المقدس وطرابلس، واستثماراً للضعف والتمزق السياسي والمذهبي، اللذين أصابا المشرق والمغرب العربيين على امتداد القرنين الرابع والخامس الهجريين.

وكان للدول الباطنية والخارجية، التي قامت وأحدثت شروخاً في الخلافة العباسية، النصيب الأكبر في إضعاف الخلافة من جانب، وهيمنة الفوضى السياسية والمذهبية من جانب آخر .

وفي الجناح المغربي وجد (بنو رستم) في المغرب الأوسط (الجزائر) وعاصمتهم (تاهرت) (١٦٠ – ٢٩٦هت/ ٧٧٧ – ٩٩م)، وفي جنوب الصحراء بالمغرب وجدت دولة

(١) محمد بطانية: المرجع السابق، ص: ٦٠٥، ٦٠٦.

بني مدرار الخارجية أيضاً وعاصمتها سجلماسة (١٣٨ – ٣٦٦ت/ ٧٥٦-٩٧٦م)، وفي المغرب الأقصى وجدت دولة الأدارسة ذات النزعة الشيعية وعاصمتها فاس (١٧٢ – ٣١٩هـ/ ٧٨٩-٩٣١م).

وقد أحدثت الدولتان الشيعيتان البويهية والفاطمية آثاراً سلبية كثيرة على دولة الخلافة وأنهكتا قواها، فالبويهيون حوَّلوا الخليفة إلى صورة باهتة، وعمدوا إلى نشر التشيع، واستأجروا الكتاب المنافقين لتشويه التاريخ الإسلامي، لاسيما التاريخ الأموي، وأما الفاطميون فقد سيطروا على المغرب ستة عقود (٣٥٨ – ٥٦٧هـ/ ٩٦٩ – ١١٧١م)، وحاولوا نشر مذهبهم الباطني الإسماعيلي بكل وسائل الترغيب والترهيب، واضطهدوا أهل السنة اضطهاداً كبيراً، وهم الذين مهدوا الأرض للصليبيين كي يسيطروا على المشرق العربي والإسلامي، بصور مباشرة وغير مباشرة.

ولم يكن ممكناً أن تتغير صورة هذا الواقع الأسيف، الذي مكن للصليبيين، وكان خير عون لهم، في ظل هذه القوى التي تحافظ على الضعف، والصراعات الداخلية، والمصالح الذاتية، على حساب مصلحة الإسلام والمسلمين.

لقد كان للخطر الباطني والقرمطي دوره الخطير في التعاون مع الصليبيين والتمكين لهم، حقداً على المسلمين من جانب، ولنجاح (صلاح الدين) في القضاء على الدولة الفاطمية الإسماعيلية من جانب آخر، وفعلاً كانت ثمة مؤامرات كثيرة على رأسها مؤامرة الإسماعيلية النزارية في (حلب) بقيادة رائد بن سنان سنة (٥٧١هـ) لاغتيال (صلاح الدين) ومنها محاولة اغتيال آثمة من جانب الباطنية خلال حصاره (لإعزاز).

وقبل هاتين المحاولتين كانت هناك المؤامرة الكبرى الدولية لاغتياله سنة (٥٧٠هـ)، بقيادة الشاعر الباطني (عمارة اليمني)، وذلك بمساعدة الحشاشين في بلاد الشام، والقوة الصليبية أيضاً، لكن خيوط المؤامرة اكتشفت وتم إعدام قادتها.

وهذا الأسلوب التآمري يرينا كيف أن القوة الصليبية كانت تلجأ إلى (الطابور الخامس) لتعويضها عن فشلها في المواجهة الواضحة، وكان أبطال الجهاد وعلى رأسهم (صلاح الدين) مدركين لخطورتها، واعين بحقيقة عداء الباطنية والحشاشين والصليبيين على قدم سواء فالكفر والنفاق شقيقان، وقد كانت هناك أرصاد وعيون وأساليب حيطة (وقبل ذلك رعاية الله له) ففشلت جميعها، لكنَّ الدرس المستفاد هنا هو ضرورة النظر – كما فعل صلاح الدين – إلى الكافرين والمنافقين بنظرة واحدة..

ومن زاوية أخرى كان لهذا الدور حضوره في الغزو التتري للعالم الإسلامي .. فقد تعاون هؤلاء مع التتار، كما تعاون الصليبيون معهم وتعاونوا معه .. واتحد الكفر والنفاق في جبهة واحدة ضد الإسلام والمسلمين خلال هذين القرنين الأخيرين – بخاصة – من عمر الخلافة العباسية.

ولقد أثمر هذا التآمر الباطني، وهذه الخيانة الدينية والحضارية نتائج مرّة، فقد بددا كثيراً من طاقة المسلمين، لاسيما في أوقات المحن والأزمات، كما قضى هذا التآمر وهذه الخيانة على كثير من الشخصيات البارزة والمخلصة في مجالات السياسة والدعوة والجهاد.

وكانت أساليب الباطنية الخبيثة من أكثر ما عانى منه المسلمون ... فقد كانوا يواجهون الجيوش المعادية بوضوح، لكن عيونهم كانت ترقب هذا العدو، الذي لا يضرب إلا في الظلام!!

بدايات ظهور الجهاد الحقيقي ضد الصليبيين

وكان ظهور بعض قوى المقاومة الإسلامية بداية طريق جديد مهد لظهور أبطال المقاومة الكبار، الذين أخذوا على عاتقهم تغيير الصورة، ومقاومة التمزق، والانتقال بالأمة من موقع الدفاع إلى الهجوم، ومن هذه القوى التي لم تأخذ حقها من التقدير نشير إلى الأمير (ياغي سيان السلجوقي) حاكم أنطاكية، الذي استمات في الدفاع عن المدينة، صامداً في

وجوه الصليبيين ما يزيد عن تسعة أشهر، محاولاً الاستنجاد بالمسلمين في دمشق وحلب وبغداد وغيرها دون جدوى، حيث كانت الأوضاع الإسلامية بالغة الضعف، والخلافات قوية، بل إن الفاطميين اتفقوا مع الصليبيين على منع المساعدات عن أنطاكية حتى تسقط سريعاً بأيدي الصليبيين، مقابل أن يسمح الصليبيون للفاطميين بالاستيلاء على بيت المقدس، الخاضع للعباسيين.

ومع ذلك كله فقد حاول قائدان من أتابكة الموصل هما: (قوام الدين كاربوغا) (٤٨٩ – ٤٩٥هـ) و(شمس الدين جكرمشي) (٤٩٥ – ٥٠٠) مقاومة احتلال أنطاكية، لكن القادة المسلمين المعاصرين لهما، خذلوهما في الدفاع عن أنطاكية، وطرد الصليبيين منها[١]، كما فعلوا من قبل مع (ياغي سيان) حاكم أنطاكية أثناء الحصار.

ومن أبطال المقاومة أيضاً الأمير التركماني (كمشتكين داشمند)[٢]؛ الذي اتخذ من بلاد الأناضول مقراً له للتوسع على حساب الصليبيين، محققاً عدداً من الانتصارات عليهم، من أهمها انتصاره على القائد الصليبي (بوهمند) حاكم أنطاكية، مما شجع بعض الأمراء المسلمين على بداية المقاومة للصليبيين، الذين كانوا يشيعون أنهم قوة لا تقهر...

ومن أبطال مقاومة الصليبيين أيضاً (الأتابك مودود بن التونتكن) أمير الموصل؛ الموالي للعباسيين والسلاجقة، وقد خاض مع الصليبيين معارك عديدة في نواحي الرها وأنطاكية خلال الفترة من (٥٠٢هـ) حتى مقتله سنة (٥٠٧هـ)، وكان (مودود) محل احترام المسلمين وتقديرهم لجهاده ضد الصليبيين، كما كان الصليبيون يحترمونه، واستشهد وهو صائم في يوم الجمعة سنة (٥٠٧هـ)، على يد الباطنية الإسماعيلية، وبهذه المناسبة كتب أحد ملوك الفرنج إلى حاكم دمشق شامتاً في مقتل (مودود) قائلاً:

"إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها حقيق على الله أن يبيدها".

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، ١٣٦/٢، دمشق، ١٩٥٤م.

(٢) المكان السابق نفسه.

ومن أبطال مقاومة الصليبيين أيضاً (الأتابك ظهير الدين) صاحب دمشق، حيث قاتل جموعاً منهم سنة (٥٠٩، ٥١٢، ٥١٣هـ)، كما قام بالتعاون مع أمراء الموصل وحلب في عدة مواقع، كما أن أمير الموصل (سيف الدين أق البرمقي) تمكن من فك الحصار؛ الذي ضربه الصليبيون على حلب سنة (٥١٨هـ) الموافق (١١٢٤م)، ومنذ ذلك التاريخ وحلب والموصل تشكلان محوراً واحداً في مقاومة الصليبيين وجهادهم حتى جاء الزنكيون فقادوا حركة الجهاد في المشرق العربي ضد الاحتلال الصليبي.

الهجوم الصليبي وتجارب المقاومة الكبرى

لقد نجحت القوة الزنكية بقيادة (عماد الدين زنكي) (٤٨٠ – ٥٤١هـ/ ١٠٨٧-١١٤٦م) وابنه (نور الدين محمود) (٥١١ – ٥٦٩هـ/ ١١١٧-١١٧٣م) في إنشاء تيار للمقاومة، بدأت أغصانه تمتد حتى أثمرت معركة حطين سنة (٥٨٣هـ - ١١٨٧م) بقيادة (صلاح الدين الأيوبي)، (٥٣٢ – ٥٨٩هـ/ ١١٣٨-١١٩٣م)، وهي من المعارك الفاصلة في التاريخ، وقد تهاوت بعدها آمال الصليبيين في احتلال ديار الإسلام واستيطانها.

وكنت معركة حطين ثمرة جهود كبيرة قامت على إحياء الروح الجهادية، وإصلاح الأمة وتعبئتها روحياً، مع القضاء على عوامل التشرذم التي تحول دون الوحدة.

لكن (صلاح الدين) أخطأ خطأ كبيراً بعد كل جهوده الموفقة، حين قسَّم الدولة التي أقامها على الوحدة والتوحيد بين أبنائه بعد وفاته، بدلاً من تركيز السلطة في يد شخص واحد يكون خلفاً له شريطة أن يلتزم بالشورى والعدل، وقد كان هذا هو ما توجبه المرحلة وتقتضيه التحديات والظروف، لاسيما وأكثر شروط القيادة تتوافر في أخيه (العادل)، الذي عاش معه في رحلته الجهادية مدة طويلة.

وقد أدى هذا التقسيم إلى تمزق دولة (صلاح الدين)، ووقوع التناطح والصراع بين أبنائه مما هدد بتداعي جهود (صلاح الدين)، وضياع انتصاراته، هذا في الوقت الذي كان

(صلاح الدين) عازماً بل ومخططاً للقضاء على كل وجود للصليبيين في بلاد المشرق الإسلامي.

لكن هذا الخطأ الكبير كان سبباً في تراجع الموقف الإسلامي وانهيار حركة المقاومة، ولعل مؤشرات هذا التردي بدأت منذ العقد الأخير من القرن السادس الهجري.

وفي الوقت نفسه يبدو لنا أن هناك عاملاً آخر سبق هذا العامل ومهَّد له، وهو أن شخصية (صلاح الدين) كانت شخصية قوية فرضت هيبتها على بلاد كثيرة من أرض الخلافة مثل الشام ومصر واليمن والحجاز والموصل وإربل والرها وديار بكر وغيرها من بلاد الجزيرة، مما جعل شخصية الخليفة العباسي الذي يمثل وحدة المسلمين ورمز الإمام والرئاسة صورة بدون مضمون حقيقي أو تأثير فاعل .. فإن (صلاح الدين الأيوبي) كان مطلق اليدين في حكم هذه البلاد وإدارة أمورها، رغم بعض مظاهر التبعية الشكلية للخليفة كالدعاء له على منابر البلاد التي يحكمها (صلاح الدين)، وإعلامه ببعض ما كان يجري في هذه البلاد، بالقدر الذي كان (صلاح الدين) يسمح به، والصورة التي كان يراها .. وقد جعل (صلاح الدين) على هذه البلاد نواباً عنه من أهل عصبيته وطاعته، يعينونه في إداراتها وتصريف أمورها[1].

وكان هذا الواقع الجديد فرصة تطلع منها الصليبيون إلى احتلال بيت المقدس، مستفيدين من النزاع بين ورثة صلاح الدين وانقسام كلمتهم، ولولا أن (الملك العادل) شقيق (صلاح الدين) كان شخصية قوية قادرة على مقاومة الحروب الداخلية بين أبناء (صلاح الدين) وأتباعهم لما استطاع أن يصد كثيراً من غارات الصليبيين وأطماعهم.

ومع ذلك فإن أوروبا والصليبيين في المشرق قد اتجهت أنظارهم إلى بيت المقدس مرة أخرى؛ بل إن (هنري دي شامبني) حاكم عكا كان يسمي نفسه حاكم بيت المقدس وعكا.

---

(١) محمد ضي الله بطاينة: الموقف الإسلامي بعد حركة حطين، ص: ٥٨٥، إربد – الأردن – ١٩٨٧م.

ومن جانبه عمل الإمبراطور (هنري السادس) على إعداد حملة على بيت المقدس لاستعادتها فأعد حملة صليبية بقيادة (كونراد) رئيس أساقفة (ميتز) ووصلت طلائع هذه الحملة إلى عكا عام (٥٩٣هـ - ١١٩٧م)، وفي أثناء سيرهم اعتدى الألمان على الأراضي الإسلامية فقتلوا بعض المسلمين في أطراف بيت المقدس وأسروا العديد من الرجال وغنموا شيئاً كثيراً، ثم أغاروا على الخليل فطلب (الملك العادل) النجدة من مختلف المناطق الإسلامية، وتصدر للألمان قرب عكا، وسرعان ما دعم الملك (هنري دي شامبني) الألمان، والتقى وقوات المسلمين في معركة حاسمة عند تل عجول قرب غزة، فانتصر المسلمون وأسروا جماعة صليبية، وملكوا غنائم كثيرة، وتابع الملك (العادل) تقدمه ففتح يافا، ثم سار إلى صيدا وبيروت وخربهما[١].

ومع هذه الهزيمة فقد تطلع الألمان إلى التقدم نحو بيت المقدس عندما نجحوا في فتح بيروت سنة (٥٩٤هـ - ١١٩٨م) وحاصروا حصن تبنين، لكن المسلمين قاتلوا قتال من يحمي نفسه، وجاءتهم الإمدادات تحت قيادة (الملك العزيز) من مصر عام (٥٩٤هـ/١١٩٨م)، كما كان خبر وفاة الإمبراطور الألماني قد انتشر قبل وصوله الديار المقدسة، فضعف حماس الألمان، وأخذوا في الرحيل إلى (صور) فتابعهم المسلمون يأسرون ويتقلون، وبالتالي فشل الألمان في حملتهم[٢].

وعلى الرغم من انحراف الحملة الصليبية، التي بدأ الإعداد لها بواسطة (البابا أنسنت الثالث) سنة (٥٩٦هـ) عن أهدافها، واتجاهها إلى القسطنطينية، وتجاوزها لبلاد الإسلام، وذلك لحقد دفين بين الصليبيين والدولة البيزنطية، التي لم تساعدهم كما ينبغي ضد المسلمين.

---

(١) إبراهيم ياسين الخطيب: القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل، دار المناهج، الأردن، سنة ٢٠٠١م، ص: ٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص: ٤٥.

على الرغم من هذا فإن همة الصليبيين لم تفتر في محاولة انتزاع بيت المقدس من المسلمين، فقد استمرت الجماعات الأوروبية تندفع نحو الشام لقتال المسلمين ففي عام (٥٩٩هـ - ١٣٠٣م) وصل إلى عكا حوالي (٣٠٠) فارس من الفلمتكيين، ثم لحقت بهم مجموعات صغيرة من الفرنسيين.

وقد اتجهوا إلى اللاذقية وجبلة، فتصدى لهم الملك (المنصور) صاحب حماة، وأنزل بهم هزيمة شديدة قرب اللاذقية، وقتل عدداً منهم، وأسر عدداً آخر نقلهم إلى مدينة حماة[1].

وفي عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) خرج أسطول عموري إلى مصر، وعبر النيل من جهة الرشيد، وتوغل حتى وصل لمدينة فوة، وأقام خمسة أيام ينهب ويسبي دون أن يتمكن المسلمون من مقاومته لعدم وجود أسطولهم في المنطقة.

وقد استعان عموري بفرسان الداوية والاسبتارية، وأغار على الجبل، وعزم على قصد بيت المقدس وانتزاعها، وسرعان ما استدعى الملك (العادل) العساكر، لكنه رأى ألا ينهك قواته في مناوشات محلية، بينما هناك الحملة الصليبية الرابعة في طريقها إلى بلاد المسلمين.

وعندما تقين (عموري الثاني) من انحراف الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية، بدلاً من سيرها إلى بلاد المسلمين، وبالتالي فقد الأمل في تقدمها نحو الشام أو مصر، بادر إلى طلب هدنة من الملك العادل، فوجد هذا الطلب قبولاً لدي الأخير، إذ كان حريصاً على التعامل مع الصليبيين بعقلية متفتحة[2].

وفي عام (٦٠١هـ) – أيضاً – أغار الصليبيون على حمص فقتلوا وأسروا، كما هاجموا ضواحي اللاذقية، وقتلوا بعض المسلمين، وغنموا من المسلمين بعض المتاع والمال.

---

(١) إبراهيم الخطيب: المرجع السابق، ص: ٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص: ٥٠.

ومع أننا لا نستطيع أن ننكر أن الملك العادل استطاع توحيد الدولة الأيوبية ثانيـــة، واتخذ موقفاً دفاعياً للتصدي لهجمات القوات الصليبية، والحد من زحفها كلما أمكن ذلك، لكننا نأسف لأنه لم يحاول أخذ زمام المبادرة ومهاجمة الصليبيين ومحاولة تصفيتهم كما كان يفعل صلاح الدين، وكان لا يرى محاربة أعدائه، ويستعمل في مقاصده المكايـــد والخـــدع، فهادنته الفرنج ... لشدة يقظته وغزارة عقله .. كما يقول المقريزي في السلوك.

ونحن نرى أن (العادل) لم يستطع الوصول إلى الفهم الصحيح للصليبيين وطبائعهم، حتى لو نجح في العيش في ظل سنوات طويلة من الهدنة معهـــم (٥٩٥ – ٦٠٧ – ٦٠٨ – ٦١٤هـــ) (١١٩٨ – ١٢١٧م).

فالذي لا شك فيه أن الروح الصليبية ظلت أقوى من هذه السياسة الـــسلمية، ولم ينس (الباب أنوسنت الثالث) مطلقاً بيت المقدس، كما أن ما حدث عـــام (٦٠٩هـــ – ١٢١٢م) لحملة الأطفال الصليبية المحزنة زادت في إثارته، ومضاعفة دعوته لحملة على بلاد الشام، فقد كان (البابا) يصدر دائماً الأوامر المشددة لمنع التجارة مع مصر، ويحرم أن تبـــاع بعض السلع التي تتعلق بإعداد السلاح والمعدات العسكرية، كما أن الـــدعوة إلى الحـــرب الصليبية ظل لها تأثيرها وفاعليتها، وهذا يفسر استمرار ملك بيت المقدس (جان دي بـــرين) في الإعداد لحملة على مصر، إذ أدرك ا لصليبيون أن احتلالها يعني التحكم في بلاد الـــشام، والقضاء على شوكة المسلمين.

لقد انشغل (الملك العادل) بمحاولة رأب الصدع في البيت الأيوبي بعد وفاة صـــلاح الدين، وكان يعتقد أن في المهادنة مصلحة للطرفين، ولم يفطن إلى أن الفرنج إنمـــا كـــانوا يقبلون الهدنة، حتى يتمكنوا في ظلها من إذكاء حمية أوروبا للقيام بجهد جديـــد لاســـتعادة الأراضي المقدسة[1].

(١) إبراهيم الخطيب: المرجع السابق، ص: ٥٧.

وكان من الأفضل له أن يوجه جهوده إلى استغلال حماس الناس، ومواصلة الجهـــاد، لإنقاذ ما بقي من أرض المسلمين بأيدي الصليبيين.

ويشير الدكتور (محمد مؤنس عوض) إلى أن (العادل الأيوبي) بتلك السياسة ابتعـــد كثيراً عن سياسة السلطان الناصر (صلاح الدين الأيوبي)، ويبدو أنه كان يخشى أن يـــؤدي تعامله العسكري مع الصليبيين إلى قدوم حملة صليبية بنفس الثقل العـــسكري والـــسياسية للحملة الصليبية الثالثة، ومع ذلك فلا نبرر له تلك السياسة، التي ستلحق الضعف بالمسلمين، خاصة أن توجهه هذا أتى في وقت لم يكن فيه الصليبيون يتعبون تلك السياسة من جانبـــهم كسياسة عامة، كما أن الاتجاه السلمي له سيتزايد من بعده على نحو سيورد المـــسلمين إلى موارد ساحة التنازلات غير المسبوقة.

ويعلق أحد المؤرخين المعاصرين على الموقف قائلاً: "إن ما قام به (صلاح الدين) من أعمال تعتبر من المنجزات ذات الأهمية البالغة، ولو أعقبه حاكم آخر من طرازه لتيسر إنجاز ما تبقى من العمل الذي كان ضئيلاً، غير أن مأساة المسلمين في العصور الوســـطى كانـــت تتمثل في الافتقار إلى النظم الثابتة اللازمة للاضطلاع بالسلطة بعد وفاة الزعيم"[1].

ومع كل ما بذله (العادل) وغيره فإن الشعور الصليبي ظل يتأجج، حتى بـــرز فيمـــا عرف (بالحملة الصليبية الخامسة) (٦١٥ – ٦١٨هـــ/ ١٢١٨ – ١٢٢١م) الـــتي قادهـــا الملك الصليبي (حنادي برين) (٦٠٧ – ٦٢٢هـــ/ ١٢١٠ – ١٢٢٥م) وعاونه المنـــدوب البابوي (بلاجيوس) واستهدفت في الأساس أرض الكنانة، فمصر كانت في قلب المـــشروع الصليبي منذ بداياته المبكرة كما هي الآن[2].

---

(١) د/ محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية، العلاقات بـــين الـــشرق والغـــرب، دار عـــين للبحـــوث والدراسات، ١٩٩٩م، القاهرة، ص: ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٨١.

والحق أن السمة البارزة للحملات الصليبية في العصر العباسي الأخير (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) هي أنها استهدفت أفريقيا والشمال الشرقي في بلاد الشام، ومن ثم كانت الهجمات الصليبية (الخامسة والسابعة) على مصر، و(الثامنة) على تونس، وهو ما يؤكد الاتجاه إلى ذلك البعد وخاصة مصر، مما يجعلنا ندرك كيف أو الغزاة كانوا خبراء في معرفة مراكز الثقل السياسية، والاقتصادية في ذلك العصر، وأن اتجاهاتهم الجغرافية لم تكن عشوائية، بل تم حسابها بدقة بالغة.

وقد اتجه (البابا أنوسنت الثالث) إلى الدعوة لتلك الحملة الصليبية في مجلس اللاتيران الكنسي، الذي عقد عام (٦١٢هـ/ ١٢١٥م)، وقد ألقى هناك خطاباً عبر فيه عن معاناة بيت المقدس بخضوعه لسيطرة المسلمين، وطالب الحاضرين بدعمه في المشاركة في المشروع الصليبي المرتقب.

والملاحظ أن الحملة الصليبية الخامسة اتجهت إلى مصر من ناحية البحر المتوسط، وبالتالي أغفلت الدرس الذي خرج منه الصليبيون في صورة حملات الملك عموري الأول، الذي قطع شبه جزيرة سيناء جيئة وذهاباً، باعتبارها البوابة الشرقية لمصر.

وهكذا اتضح منذ البداية أن الصليبيين – أحياناً – لم يستفيدوا من تجارب تاريخهم السابق في المنطقة، وهكذا خرج الملك (حنا دي برين) ومعه المندوب (البابوي بلاجيوس) من (عكا) متجهاً صوب مصر، وخاصة مدينة دمياط.

وقد واصل الصليبيون زحفهم على شاطئ البحر إلى الشمال الغربي في مقابلة دمياط، وشرعوا في الهجوم على ما عرف ببرج السلسلة، وتمكن الصليبيون من الاستيلاء عليه، وتم الاستيلاء على دمياط، التي سقطت في أيدي الصليبيين عام (٦١٦م/ ١٢١٩م)، بعد حصار دام (ستة عشر شهراً)، وكان الملك (العادل) مريضاً، فمات حزناً، عندما سمع هذه الأخبار، ورأى أن سياسية السلمية القائمة على الهدنة لم تكن كلها صواباً[1].

(١) د. محمد مؤنس: الحروب الصليبية، ص: ٢٨٢، ٢٨٣.

وقد تولى بعد (العادل) ابنه (الكامل)، الذي كان شخصية قلقة مضطربة، وقد حاول أن يهادن الصليبيين لكي يخرجوا من مصر في مقابل أن يرد عليهم مدينة بيت المقدس نفسها ومعظم البلاد الفلسطينية التي كان (صلاح الدين) قد أجلاهم عنها، ومع ذلك فقد رفض الصليبيون عرضه السخي، على أساس أنه لابد من هزيمة المسلمين أولاً، ولم يكن أمام (الكامل) من طريق إلا طريق المواجهة، فاتجه إلى الرحيل عن فارسكور، حيث كان يقيم جيشه، حيث عسكر في المكان الذي عرف بعد بمدينة المنصورة، واتخذ شكل مثلث حصين، بضلعين مائيين في صورة البحر الصغير والنيل، مما كن من شأنه أن يحاصر الصليبيين، فلا يصلون إليه عن طريق النيل إلا بأسطول نهري طويل، بعيداً عن قواعدهم[1].

وبهذا الموقع أصبح (الكامل) قريباً من النجدات الأيوبية القادمة من الشام، ومن ميناء سمنود، وتغير الموقف لصالح المسلمين، واستمر الصليبيون في دمياط نحو ثلاثة أعوام، ووصلت الإمدادات الأيوبية الكثيرة إلى (الكامل) قادمة من بلاد الشام، واستخدم الأيوبيون سلاح المياه وقت فيضان نهر النيل، فاستطاعوا إغراق أكثر الصليبيين الغزاة، وانسحبوا من دمياط عائدين إلى فلسطين عام (٦١٨هـ)، وباءت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل الذريع.

أما الحملة الصليبية السادسة فقد كانت أمثولة عجيبة، سقط فيها الملك (الكامل) ابن (العادل) سقوطاً شنيعاً، على صلة خاصة بينه وبين الإمبراطور الألماني (فردريك الثاني)، الذي أعانه ضد أخيه المعظم عيسى، فحفظها الكامل له يداً، واستغلها (فريدريك) أسوأ استغلال، وبوقاحة شديدة جاء إلى الشرق برفقته خمسمائة فارس فقط، ليوحي (للكامل) وللمسلمين أنه جاء للسلم لا للحرب، ومع هذا العدد القليل الذي جاء به (فردريك)، فإن لاباب (جريجوري التاسع) كان قد أصدر حرماناً كنسياً ضده، وهذا يعني أن موقفه كان

(١) محمود سعيد عمران: الحروب الصليبية، ص: ٢٦٠، نقلاًعن د/ محمد مؤنس: الحروب الصليبية – العلاقات، ص: ٢٨٥.

ضعيفاً جداً، كما أن البيت الأيوبي كانت أحواله قد استقرت بعد وفاة (المعظم عيسى)، العدو اللدود (للكامل)، ومع كل هذه الظروف الإيجابية بالنسبة للجانب الإسلامي، والسلبية بالنسبة للجانب الألماني الصليبي، فإن (فردريك) نجح في أن يخدع (الكامل) بنعومته الدبلوماسية، ومكره السياسي، حتى استطاع انتزاع بيت المقدس من يد المسلمين، وعقد (اتفاقية يافا) عام (٦٢٧هـ - ١٢٢٩م) التي تنص على الآتي:

١- أن تكون هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات.

٢- يحصل الصليبيون على بيت المقدس، وبيت لحم، والناصرة، وتبنين، وصيدا، وكافة القرى على الطريق من عكا إلى بيت المقدس، ومن عكا إلى يافا، وكذلك أرض تورون وملحقاتهم بالإضافة إلى صيدا وقيسارية.

٣- أن تكون بيت المقدس على ما هو عليه الآن، ولا يتم تجديد سورها، وأن يضع المسلمون أيديهم على الصخرة، والمسجد الأقصى، وتقام الشعائر فيه[١].

وقد ثار الرأي العام الإسلامي على تصرفات الكامل الحمقاء، واشتد البكاء، وعظم الصراخ، والعويل، واشتد الإنكار على الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار، وتم خذ العزاء بدمشق في فقدان بيت المقدس.

والحق أن اتفاق (الكامل) التعيس مع (فردريك الثاني) يعكس لنا الفجوة الكامنة بين الأجيال الأيوبية ورؤيتها للتعامل مع الوجود الصليبي في بلاد الشام، وتحالفه الاستراتيجي مع الغرب الأوربي، ومن الممكن تصور الأمر كالآتي: جهاد – سياسة دفاعية – تنازل ... وهو ترتيب متفق مع عهود كل من (صلاح الدين الأيوبي) ، ثم (العادل) ومن بعده (الكامل) [٢].

---

(١) انظر: محمد مؤنس: العلاقات بين الشرق والغرب، ص: ٢٩١، ٢٩٢، وانظر ابن واصل: مفروج الكروب ٤/٢٤١ – ٢٤٣، ابن العديم: زبدة الحلب ٣/٢٠٥.

(٢) محمد مؤنس: المرجع السابق، ص: ٢٩٩.

وقد نجح المسلمون في استعادة بيت المقدس بقيادة (الناصر داوود) أمير الأردن خلال خمسة عشر عاماً من مهزلة الكامل، بائع بيت المقدس، والذي استحق – بجدارة – لقب: (ملك التنازلات).

ومع كل ذلك فإن الروح الصليبية ظلت تعمل عملها مستغلة ضعف الأيوبيين، فتحركت الحملة الصليبية السابعة التي وصلت طلائعها الفرنسية إلى عكا سنة (٦٣٧هـ).

وفي العام نفسه تسلم الأمور (الصالح نجم الدين أيوب)، فخانه (الصالح إسماعيل) وتحالف مع الصليبيين، فتعاون العالم الورع (العز بن عبد السلام) مع (الصالح أيوب٩ وهزموا الصليبيين هزيمة منكرة، وبهذا فشلت الحملة الفرنسية الصليبية السابعة ...

وقد تبعتها حملة إنجليزية بقيادة (ريتشارد كونول) أخي ملك إنجلترا (هنري الثالث)... وقد واجهها الأيوبيين والخوارزميون معاً وهزموا الصليبيين هزيمة كبيرة في غرة.

وفي عام (٦٤٦هـ) قاد ملك فرنسا (لويس التاسع) حملة فرنسية صليبية، وعمد إلى مراسلة المغول، وتحريضهم ضد المسلمين ... ثم اتجهت الحملة إلى دمياط مصر فاحتلتها.

وتوفي الملك الصالح (نجم الدين أيوب)، وملكت الأمر زوجته (شجرة الدر)، واستدعت ابنه (توران شاه) فجاء مباشرة إلى أرض المعركة فانتصر على الصليبيين، وقتل أخا الملك (لويس التاسع) وهو (روبرت)، فانسحب الصليبيون إلى دمياط، وفاوض الملك (لويس التاسع) (توران شاه) في أن يسلم الأيوبيين دمياط، مقابل تسليمهم القدس له، فرفض طلبه، ودارت معركة ثانية بين الطرفين، انتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً، وأسر ملك فرنسا (لويس التاسع)، وحبس في دار ابن لقمان بالمنصورة، ولم يطلق سراحه، حتى أمليت الشروط على الصليبيين فوافقوا عليها، وانسحبوا إلى عكا، ثم انسحب (لويس التاسع) إلى فرنسا عام (٦٥٢هـ) بعد أن فشل في التحالف مع المغول الذين كانوا لا يزالوا بعيدين عن ساحة المعركة..

وبعد أن جاء المماليك إلى الحكم عقب الأيوبيين قضوا على ما تبقى للصليبيين من آثار في بلاد الشام[1].

وبهذا طويت صفحت الحروب الصليبية التي بددت طاقة المسلين لأكثر من قرنين من الزمان ... وذلك في وقت تزامن في بروز القوة المغولية التترية ... فسلَّم الصليبيون الراية للتتار، وعاونهم بكل الطرق لتحقيق ما عجزت عنه الحروب الصليبية من تدمير للمسلمين وقضاء على الإسلام.

وفي عام (٦٥٦هـ)، أي بعد أربع سنوات من مغادرة (لويس التاسع) أرض مصر، نجح التتار في القضاء على الخلافة العباسية، وتدمير بغداد، وإبادة أهلها، محققين ما عجز الصليبيون عن تحقيقه.

ومن جانب آخر فإن الحروب الصليبية العالمية لم لكن هدفها الشرق وحده، ولا بيت المقدس كما يزعمون، وإنما كان هدفها استئصال الإسلام من كل العالم، ويؤكد هذا أنه على الشاطئ الآخر كان يجري العمل الأوربي الدءوب على استئصال المسلمين في الأندلس (٩٢ – ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م)، ولعل مخططهم في الأندلس – كما لاحظ عدد من المؤرخين – كان التوطئة والمدخل لحروبهم الصليبية في الشرق، فسقوط طليطلة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) ما كان يفصله سوى عشر سنوات عن إعلان البابا (أوربان الثاني) رسمياً بداية الحروب الصليبية (٤٨١ – ٤٩٣هـ/ ١٠٨٨-١٠٩٩م)، مما يؤكد أن التفكير العسكري والكنسي كان يخطط لحروب صليبية شاملة؛ تبدأ من الأندلس وصقلية، وبقية جزر البحر الأبيض، وتنتهي بالتهام مصر والشام والقدس الشريف.. وكان هذا المخطط ناضجاً في الفكر الصليبي الكنسي منذ البابا (جريجوري السابع) (٤٦٦ – ٤٧٨هـ/ ١٠٧٣ – ١٠٨٥م)، لكن البابا (أوربان الثاني) (١٠٨٨م) هو الذي أشعل فتيل

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ٦/٣٣٧، ٣٣٨، المكتب الإسلامي – بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

المواجهة[1]، معتمداً في طموحاته الصليبية على مخطط شامل للانقضاض على الشرق العربي الإسلامي، يشبه أن يكون حرباً عالمية على الإسلام والمسلمين، على النحو الـــذي نعيـــشه اليوم.

الغزو التنصيري في الحقبة الأخيرة للدولة العباسية

لم يكن عجيباً أن يفاجأ المسلمون وهم على أبواب شهر رمضان (١٤٢٧/ سبتمبر ٢٠٠٦م) بتصريحات تفتقد الحد الأدنى من الموضوعية والأخلاق العلمية والدينية، يطلقهـــا رجل الكاثوليكية الأول البابا (بندكت السادس عشر)، بابا الفاتيكان والكاثوليكية، فالتاريخ يعلمنا أن البابوية كانت المشعلة – بطريق مباشرة أو غير مباشرة – للحروب الصليبية على الإسلام، بل وحروب الإبادة الجماعية للمسلمين، يؤكد ذلك أن واحداً مـــن التعريفـــات المشهورة للحروب الصليبية أنها (السياسة الخارجيـــة للباباويـــة: The foreign policy of papcy)، على اعتبار أن الباباوية هي التي خططت للمشروع الصليبي وتبنته، منذ أن كـــان مجرد فكرة حتى صار واقعاً ملموساً ... ورأى بعضهم أنها مرحلة من مراحل العلاقات بـــين الشرق والغرب في العصور الوسطى، أو أنها قسم من المسألة الشرقية: question d' orient) بل ثمة تعريف يقترب جداً من حقيقة هذه الحروب، وهو التعريف الـــذي يـــرى أن تلـــك الحروب الشرسة تمثل – بحق – محاولة للتنصير سعت إليها البابوية بكافة الصور والوســـائل من أجل تحويل مسلمي الشرق الأدنى عـــن الإســـلام – وجعلـــهم يعتنقـــون المـــسيحية الكاثوليكية، ويكونون تابعين لكنيسة روما، التي اعتبرت نفسها سيدة الكنائس، ومتزعمـــة عالم المسيحية[2].

---

(١) انظر/ شمس الدين الكيلاني: حقبة الحروب الصليبية والوضع على طرفي المجابهة التاريخية، مجلة الاجتهاد، العدد ٢٨ ١٩٩٥م، ص: ٥٧.

(٢) محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية (الساسة والمياه والعقيدة)، ص: ٩٢، ٩١، عـــين للدراســـات والبحوث، مصر، ٢٠٠١م.

ومعنى ذلك أن المشروع الصليبي كانت له أهداف معلنة، تمثل في الاستيلاء على الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين، وأهداف حقيقية غير معلنة تتمثل في اختراق المسلمين عقائدياً من خلال مشروع تنصيري، يسير جنباً إلى جنب مع الجانب الحربي، فضلاً عن نهب ثروات الشرق من خلال مشروع صليبي استخرابي منظم، يقوم على ضرب المسلمين في عقر دارهم، وزرع كيانات صليبية دخيلة في قلب بلادهم، وكل هذا يؤكد لنا أن الاتجاه التنصيري في الحروب الصليبية كان أساسياً، وكان تحققه منوطاً برغبة جامحة في تغيير الهوية الدينية لأبناء المنطقة من المسلمين وهم الغالبية، وما يقتضيه هذا التغيير من تغيير الواقع الديموغارفي – السكاني – حرص الصليبيون على إقامة المذابح الوحشية التي حلت بالمسلمين من أنطاكية إلى بيت المقدس، ليس فقط من أجل إشباع الرغبة الجامحة لديهم للانتقام والسادية، بل إنهم أرادوا القضاء – قدر الإمكان – على البنية السكانية المسلمة، حتى يسهل انتزاع الأرض وإيقاف المقاومة التي من الممكن أن تحدث ضدهم من قبل أو تولد[1]... وأما على المستوى الطبوغرافي – العناصر السكانية – فقد حاول الصليبيون زرع مستعمرات صليبية، وطرد الفلاحين المسلمين الأصليين، كما حدث في مستعمرات البيرة، والقبيبة، وكفر مالك، وغيرها، كذلك إقامة عشرات القلاع والحصون، التي وزعت في مناطق إستراتيجية لتمزيق المنطقة جغرافياً، وسياسياً، لمنع اتصال أبناء المنطقة بعضهم البعض، وإعاقة الوحدة بينهم بكل الصور، وكذلك لتأمين وجودهم وسط محيط إسلامي يناصبهم العداء الشديد[2].

وأما على المستوى العقائدي فقد اتجه المشروع الصليبي إلى تغيير هوية أبناء المنطقة المنكوبة من خلال تنصيرهم وتحويلهم عن الإسلام ... وفي هذا المجال سعى الصليبيون إلى معرفة عقائد المسلمين لمواجهتها بالمخططات المضادة، ولهذا لم يكن من قبيل المصادفة أن تتم

(١) محمد مؤنس عوض: المرجع السابق، ص: ٩٥.

(٢) المكان نفسه.

ترجمة معاني القرآن الكريم لأول مرة إلى اللغة اللاتينية خلال القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري في ذروة الصراع الإسلامي الصليبي، وقد تمت الترجمة عام (٥٣٨هـ/١١٤٣م) بناء على تكليف من جانب بطرس الموقر، كلوني بفرنسا، الذي توفي ع أم (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) وقد تم إرسال الترجمة (المزيفة) إلى رئيس دير كلوني العام، الذي وضعها تحت تصرف كل من يريدها من القائمين على أعمال التنصير، مع ملاحظة أن هذه الترجمة اللاتينية الأولى تعد أ قرب إلى التلخيص الموسع منها إلى الترجمة، وهي لا تلتزم بالنص من ناحية الدقة والحرفية، كما أنها لا تلتزم بتتريب الجملة في الأصل القرآني، مع وجود أخطاء جزئية في فهم بعض الآيات القرآنية في تلك الترجمة، وعلى أساس هذه الترجمة المشوهة – للأسف – قامت الترجمات الأخرى إلى اللغات الأوروبية الحديثة، مثل الترجمة الإيطالية، التي قام بها (أريفابيني) (٩٦٩هـ/١٥٤٧م)، والتي على أساسها قامت الترجمة الألمانية التي قام بها (سالمون شفايجر) (١٠٣٨هـ/١٦١٦م)، واعتماداً على الترجمة الألمانية قامت الترجمة الهولندية (١٠٦٣هـ/١٦٤١م)، وهي بالتالي أساس عدد من الترجمات الأوربية الحديثة لمعاني القرآن الكريم[١]...مما يوحي بأن هناك قصداً وتخطيطاً لبناء التصور الكنسي للإسلام والقرآن من خلال موروث متراكم يقوم على أخطاء مركبة، يعتمد بعضها على بعض، دون رجوع إلى المصدر الصحيح، وهو ما يشكل تزويراً متعمداً، ومؤامرة علمية لا أخلاقية.

والجدير بالذكر أن اتجاه الصليبيين إلى التنصير تغير حسب تغير ظروف الصراع الإسلامي الصليبي، وقد رأى الصليبيون الاتجاه إلى نشر المسيحية في صفوف الأطفال، وهم كائنات صغيرة قابلة للتشكيل العقائدي، ومقاومتها ضعيفة بطبيعة الحال[٢]، فمما لوحظ

---

(١) المرجع السابق، ص: ٩٦ – ٩٧، وانظر: السيد أحمد أبو الفضل: انتشار ترجمات معاني القرآن الكريم في شرق العالم ومغربه، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٣٠، الرياض (١٤١١هـ)، وانظر/ محمد زقزوق: الرسالة المحمدية، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، جامعة قطر، العدد: ٤.

(٢) محمد مؤنس: المرجع السابق، ص: ١٠١.

على سلوك الصليبيين عندما احتلوا دمياط في مصر، أنهم عاثوا فساداً وسفكاً للدماء، واغتصاباً للنساء، واتجهوا إلى تحويل مسجدها الكبير إلى كنيسة، وذلك إلى جانب قيام الصليبيين بتنصير أطفال المسلمين في دمياط، وقد أقر بذلك المؤرخ الصليبي (جاك دي فتري) على نحو له دلالة واضحة على أن المنصرين ساورا وراء الفرسان الصليبيين، وأن الحركة الصليبية بعد أن أخفقت في غزو البالغين وجعلهم يتحولون عن الإسلام إلى المسيحية، اتجهت إلى غزو قلوب الأطفال الأبرياء، الذين ليس لهم ناقة ولا جمل في ذلك الصراع المحموم بين الطرفين، وبصفة عامة من الملاحظ أن السلوك الدموي للصليبيين كان في حد ذاته أمراً منفراً يحول دون اعتناق المسيحية[1].

وفي مرحلة من المراحل اتجاه الصليبيون إلى محاولة تنصير القيادات الإسلامية على اعتبار أن ذلك سييسر لهم تنصير القطاعات الشعبية بعد أن تمكنوا من قلوب الحكام، وقد روي أن هناك محاولة بذلت لتنصير السلطان الكامل الأيوبي (٣٦٥ – ٦١٥هـ/ ١٢١٨ – ١٢٣٨م) خلال أحداث الحملة الصليبية الخامسة، حيث قدم إليه القديس (فرنسيس الأسيري) ودعاه إلى اعتناق المسيحية، غير أن السلطان الأيوبي اعتذر عن قبولها وعامل – مع ذلك – القديس معاملة حسنة[2]، وأيضاً ففي الحملة الصليبية التي قادها الملك الفرنسي (لويس التاسع) (٦٢٢ – ٦٦٦هـ ١٢٢٦ – ١٢٧٠م) على تونس، خلال حكم (المستنصر الحفصي) (٦٤٧ – ٦٧٥هـ/ ١٢٤٩-١٢٧٧م) هدفت الحملة – بالإضافة إلى مطامعها السياسية والاقتصادية – إلى محاولة تنصير (المستنصر الحفصي)، مستغلة في ذلك معاملته الطيبة للتجار المسيحيين، الذين كانت تربطهم علاقات تجارية مع السلطنة الحفصية، بيد أن هدف الحملة باء بالإخفاق، إذ قاد (المستنصر الحفصي) التونسيين لمقاومة الغزاة[3]،

(١) محمد مؤنس: الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص: ٢٨٥ – ٢٨٦.

(٢) محمد مؤنس عوض: السياسة والمياه والعقيدة، ص: ١٠٢.

(٣) المكان السابق.

ومع كل هذه الجهود التنصيرية، التي واكبت الحروب الصليبية أثبتت حقيقة لا لبس فيها وهي: إن الصليبيين عجزوا عن تصدير دياناتهم إلى المنطقة على نطاق كبير، وحافظت المنطقة على هويتها الدينية من خلال الإسلام، بل إن هذه التحديات الخارجية – بصفة عامة – قد أدت إلى زيادة تمسك أبنائه به ، وقد أدى إخفاق الصليبيين في نشر المسيحية من خلال العمليات العسكرية، والدعوة إلى التنصير من خلال الأطفال والقادة وغيرهم إلى تحول تفكيرهم نحو أسلوب جديد قاده (ريموند لول: Raymond Lull) (٦٣٣ – ٧١٤هـ/ ١٢٣٥ – ١٣١٥م)، الذي كان من الرهبان الفرنسيسكان، فقد دعا (لول) إلى اتباع أسلوب علمي قائم على تعلم اللغة العربية من جانب المنصرين، والاتجاه نحو الإقناع بدلاً من أسلوب الحرب في مواجهة المسلمين، واتباع أسلوب تنصيري قائم على (الحب، والصلوات، وانهمار الدموع) في التعامل مع الوثنيين (المسلمين وغيرهم) ... ولتحقيق ما دعا إليه (لول) وافق (مجمع فيينا) عام (٧١٠هـ/ ١٣١١م) على تأسيس ست مدارس لدراسة اللغات الشرقية في القارة الأوروبية، ومعنى ذلك بعبارة أخرى، أن تجربة التنصير على الأرض العربية دفعت المؤسسة الدينية في الغرب الأوروبي إلى تطوير نفسها، والبحث عن أساليب جديدة[1] قائمة على الغزو من الداخل بالأساليب السلمية والعلمية، ومعرفة ما عند المسلمين من عقائد و تشريعات، والعمل على تشويهها واختراقها..

ومما يذكر أن (لويس التاسع) بعد فشل حملاته الصليبية العسكرية، قد دعا إلى اتباع هذه الأساليب أيضاً.

وبإيجاز نستطيع القول: إن الغزو التنصيري والحرب قد تزامنا وتعاونا ... فلما فشل الغزو العسكري انفرد الغزو الفكري والعقدي التنصيري وبذلت في سبيله كل الإمكانات،

(١) المرجع السابق، ص: ١٠٦، وانظر: علي الغامدي: الراهب الفرنسيسكان ريموند لوك ومحاولته نشر النصرانية في شمال إفريقيا، المؤرخ العربي، العدد: ٦، م(١)، مارس ١٩٨٨م، ص: ١٣٣.

واتجهت إليه كل الجهود ...وما زالت هذه الجهود موصولة – بكل قوة – في عصرنا الحديث.

الغزو المغولي للعالم الإسلامي وسقوط الخلافة العباسية:

ليس من شأننا هنا أن نستعرض نشأة المغول، وتطور كيانهم من القبيلة حتى الإمبراطورية، وحسبنا هنا أن نشير إلى أن التتار شعب بدوي، كان يعي بأطراف بلاد الصين، وكانوا يعبدون الكواكب، وهم أصل القبائل المتفرعة عنهم من مغول وترك وسلاجقة وغيرهم، وربما يكون لسيطرة قبيلة المغول على التتار في بعض مراحل التاريخ، هو الذي جعل اسم المغول يغلب على الجميع، وهناك من يقول إن التتار والمغول أخَوَان، لكن المغول سيطروا عل الفرعين حينما ظهر (جنكيز خان) ووحد قبائلهم، والتتار منتشرون الآن بشرق روسيا وسيبيريا، وشبه جزيرة القرم، أما المغول فيوجدون في الصين وأفغانستان[1].

وقد توسع المغول غرباً في اتجاه الدولة الإسلامية وغرب أوروبا، واستطاعوا في مدى سنتين (٦١٦ – ٦١٧هـ/ ١٢١٩ – ١٢٢٠م) أن يحتلوا بخارى وسمرقند والري وتبريز وتفليس في بلاد الكرج، ثم استولوا على بلاد القفجاق والروس، ومدينة بلخ في خراسان، ولم يمت (جنكيز خان) (٦٢٤هـ/ ١٢٢٩م) إلا بعد أن امتدت دولتهم من حدود الصين شرقاً إلى إيران وبلاد العراق وبلاد الروس غرباً، وإلى بلاد الهند جنوباً[2].

ويجب أن نشير هنا ابتداءً إلى أن الصليبيين – عندما بدأ الضعف يدب فيهم وينحسرون عن بلاد الشام ومصر – عملوا على إبعاد التتار عن الإسلام وشوهوه لهم، عن طريق الرسل الذين أرسلوهم إليهم، وحسنوا لهم ديار الإسلام ومنتجاتهم وخيراتها، وحرضوهم على غزوها، ولم يكتفوا بهذا، بل أرسلوا نساءهم النصرانيات إلى بيوت التتار

---

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ٣٤٦/٦.

(٢) د/ إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص: ٢٠١، الشركة العالمية للكتاب – بيروت، ١٩٨٩م.

على شكل خليلات أو حليلات تعمل عمل الرسل بشكل مستمر، وربما كانت هناك اتصالات على مستويات أخرى، وكلها تحرض على احتلال بلاد المسلمين والتنكيل بهم..

وأياً كان الأمر فقد استطاع المغول في سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) أن يسيطروا على جميع الممالك الإسلامية باستثناء مصر والشام والجزيرة والعراق، وهزموا جميع الأجناس التي واجهتهم، وقتلوا من المسلمين في البلاد التي فتحوها، ومن غير المسلمين ما لا يحصى عددها إلا الله عز وجل.

يقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): وبالجملة فلم يدخلوا بلداً إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال، وكثيراً من النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه[1].

وقد توجه (جنكيز خان) إلى بخارى وبها عشرون ألف مقاتل فهزمهم، وخرَّب ودمَّر، وأسر النساء والأطفال، ثم توجه إلى سمرقند، وبها خمسون ألف مقاتل، فأخذ منهم التتار السلاح، وكل ما يمكن أن يدافعوا به عن أنفسهم وبلادهم، ثم قتلوهم جميعاً، وسلبوا ونهبوا وسبوا، وذلك شأنهم في كل بلد يفتحونه...

وبعد فتح سمرقند ضرب (جنكيز خان) معسكره هناك، وأخذ يرسل السرايا في كل الجهات فأرسل سرية إلى خراسان، وأرسل أخرى إلى الري[2].

وفي سنة (٦٢٠هـ - ١٢٢٣م) قصد التتار بلغاريا، وانتهوا منها، ورجعوا نحو ملكهم (جنكيز خان) وكان قد أرسل سرية إلى كلانه، وأخرى إلى فرغانه ففتحوا هذه البلاد[3].

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٠٠ – ٢٠٢، مكتبة المعارف، بيروت (حوادث سنتي ٦١٦، ٦١٧هـ).

(٢) محمد السيد الوكيل: أسباب الضعف في الأمة الإسلامية، القسم الأول، ص: ٢٠٤، دار المجتمع، مصر.

(٣) البداية والنهاية: حوادث سنة (٦٢٠هـ).

وفي سنة (٦٢١هـ - ١٢٢٤م) جهز (جنكيز خان) سرية وأرسلها إلى الري، وكانت التتار قد غادروها، وأخذ أهلها في تدميرها، ولكنهم لم يتموا تعميرها حتى فاجأتهم السرية، فقتلت أهل الري، وانطلقت نحو ساوة، ثم إلى قم وفاسان، فقتلوا وسبوا ونهبوا، ثم ساروا إلى همدان، ثم تبعوا الخوارزمية الذين فروا حين واجه (جلال الدين) (جنكيز خان) وقتلوا منهم خلقاً كثيراً[1].

لقد استطاع (جنكيز خان) أن يستولي على شمال آسيا من الشرق إلى الغرب في سبع سنين، وقد كان ملكاً جباراً لا تعرف الرحمة إلى قلبه طريقاً.

ولقد هزت فتوحاته أركان الدول التي هاجمها، ولم تسلم منه مدينة، وقد عمر طويلاً، فقد ولد في سنة (٥٠٩هـ/ ١١١٥م) وصار ملكاً في سنة (٥٩٩هـ - ١٢٠٢م) أي بعد أن بلغ عمره تسعين عاماً، وبدأت غاراته على البلاد الإسلامية سنة (٦١٦هـ - ١٢١٩م)، وقد تجاوز المائة بسبع سنين، واستمرت غزواته حتى (٦٢٤هـ - ١٢٢٧م)، حيث توفي في هذه السنة، وقد بلغ عمره مائة واثني عشر عاماً[2].

أما الطاغية (هولاكو) فقد ولد في حياة جده (جنكيز خان) سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)؛ يقول ابن كثير – رحمه الله –: هو ملك التتار ابن ملك التتار، والعامة يقولون: (هولاوون)، قال: كان (هولاكو) ملكاً جباراً فاجراً كافراً – لعنه الله – قتل من المسلمين شرقاً وغرباً ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم ... كان لا يتقيد بدين من الأديان، وكانت زوجته (ظفر خاتون) قد تنصرت، وكانت تفضل النصارى على سائر الخلق، وبالتالي كان لها اليد الطولى في تحريض (هولاكو) على إبادة المسلمين بهذه الطرق الوحشية المعروفة عنه،

---

(١) البداية والنهاية: حوادث سنة (٦٢١هـ).

(٢) محمد السيد الوكيل: أسباب الضعف في الأمة الإسلامية، ص: ٢١١.

وقد تولى (هولاكو) أمر التتار، وكان حريصاً على أن يضم بغداد مقر الخلافة الإسلامية إلى مملكته، حتى يحقق ما عجز جدّه عن تحقيقه[1].

وعندما دخلت سنة ست وخمسين وستمائة – كما يقول ابن كثير – أخذت التتار بغدد، وقتلوا أكثر أهله حتى الخليفة، وانقضت دولة بني العباس ... لقد استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأمرين اللذين على مقدمة عسكر سلطان التتار (هولاكو خان)، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل – يساعدونهم على البغاددة – وميرته وهداياه، وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار، ومصانعة لهم، قبحهم الله تعالى.

ويقول ابن كثير: ولقد مالوا – أي التتار – على البلد (بغداد) فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار، وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات، ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر، وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة (فإنا لله وإنا إليه راجعون)، وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً بذلوا عليه أموالاً جزيلة، حتى سلموا وسلمت أموالهم، وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس وهم في خوف وجوع، وذلة وقلة[2].

ولقد استمر القتل في أهل بغداد أربعين يوماً، فبلغ القتلى عدداً هائلاً، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة.

---

(١) محمد السيد الوكيل: المرجع السابق، ص: ٢١٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، المكان السابق.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد في هذه الوقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس، وهو قول مبالغ فيه فيما نرى.

وفي يوم الأربعاء، رابع عشر صفر من عام (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) قتل الخليفة المستعصم بالله رفساً بالأرجل، وكان عمره يومئذ ستاً وأربعين سنة وأربعة أشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، وقتل ولده الأكبر (أحمد)، كذلك قتل ولده الأوسط (عبد الرحمن) وأما ولده الأصغر (مبارك) فقد أسر، وأسر معه أخواته الثلاثة: (فاطمة، وخديجة، ومريم)، وأمر من دار الخلافة ألف فتاة بكراً.

وقد عطلوا المساجد والجماعات والجمعيات لعدة شهور ببغداد، وأصبحت بغداد أكواماً من جثث القتلى، وقد سقط على هذه الجثث مطر؛ فتغيرت ملامحها وجيفوا، فأنتنت بغداد بجيفهم، وحصل بسبب ذلك وباء شديد، سرى مع الهواء حتى وصل بلاد الشام، فمات بسبب ذلك خلق كثير، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء، والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون[1].

لقد قدَّم التتار للصليبيين خدمة عظيمة، وقد كان التحريض الصليبي للتتار ظاهراً، وقد تمثل ذلك – كما رأينا – في إغرائهم للتتار الصحراويين بما في أرض المسلمين من الخيرات التي لم يسمعوا بها .. كما تمثل هذا في الدور الذي قامت به النساء النصرانيات اللائي تزوجن من قيادات التتار .. كما تمثل في وسائل أخرى دبلوماسية وسياسية واقتصادية.

لقد ازدحمت العقود الأخيرة من عمر الخلافة العباسية بالحملات الخارجية والخيانات الباطنية الداخلية.

---

(١) البداية والنهاية: حوادث سنة (٦٥٦هـ).

ولأنها كانت عقود ضعف وتمزق سياسي وفكري فقد استطاعت هـــذه الحمـــلات والفتن أن تحقق أهدافها وتسقط الخلافة – من جانب – وتدمر الطاقة البشرية الإسلامية من جانب آخر.

ولكن خلال عامين فقط (٦٥٨هـــ)؛ عندما رفعت الأمة راية (واإسلاماه) هزمـــت التتار في (عين جالوت) هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة ... وعادت الروح إلى الأمة المسلمة.. واندحر الكافرون والمنافقون.

وهذا درس من دروس تاريخنا الإسلامي العظيم !!.

أ. د/ عبدالحليم عويس – القاهرة